عظة في أحد الأرثوذكسية

المتقدم في الكهنة ألكسندر شميمن

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

ما يلي عظة نبوية لأب أرثوذكسي معروف من القرن العشرين، ألكسندر شميمن. من المحبِط أنه بعد ما يقرب من نصف قرن من هذا الخطاب النبوي، ما زال موقف الكنائس "الأم" يمعن في عدم إطلاق كنيسة أميركا. فقداسة الكثيرين في أميركا، رافائيل هواويني ويوحنا ماكسيموفيتش وأفرام أريزونا وغيرهم، تجلّت فيهم كأميركيين وليس كأنطاكيين أو يونان أو روس، وقد عكست قداستهم حرارة إيمانٍ تفتقدها غالبية كنائس الشرق التي تتمسك بأبرشياتها القومية في أميركا، على حساب الأرثوذكسية، لأسباب بات الكل يعرفها ويمكن اختصارها بإثنين: البابوية غير المعلَنة والطمع، والأمران يكسران الأرثوذكسية. إن هذه العظة تتحدى كل الأرثوذكسيين، من أولئك الذين لا يزالون يحنّون إلى امبراطورية "إلهية" انقضت إلى غير رجعة، إلى الذين يحاولون بناء امبراطوريات لأنفسهم وليست للمسيح الذي لا يحتاج ممالكاً. ومن الذين تشغلهم صور بوتين يضيء الشموع أو غيرهم من الذين يندبون اليونان لأنها تتبنى قوانين الغرب أو تثير غضبهم إعادة تحويل الأيا صوفيا إلى مسجد. هؤلاء جميعاً يدلّهم الأب شميمن على الانتصار الحقيقي الذي يتلهّون عنه. (أسرة التراث الأرثوذكسي)

باسم الآب والابن والروح القدس. آمين.

إذ نحتفل اليوم بانتصار الأرثوذكسية في هذا الأحد الأول من الصوم الكبير، نفرح بذكرى ثلاثة أحداث: حدث ينتمي إلى الماضي، حدث في الوقت الحاضر، وحدث في المستقبل.

عند كل عيد أو فرح في الكنيسة، ننظر، نحن الأرثوذكس، أولاً إلى الوراء لأننا في حياتنا الحالية نعتمد على ما حدث في الماضي. إننا نعتمد قبل كل شيء، بالطبع، على الانتصار الأول والنهائي، وهو انتصار المسيح نفسه. إن إيماننا متأصل في تلك الهزيمة الغريبة التي أصبحت أعظم انتصار: هزيمة الرجل المسمّر على الصليب، القائم من بين الأموات، الذي هو الرب وسيد العالم. هذا هو أول انتصار للأرثوذكسية. هذا هو محتوى كل تذكاراتنا وكل أفراحنا. لقد اختار هذا الرجل وانتقى اثني عشر رجلاً، وأعطاهم القدرة على الكرازة بتلك الهزيمة وذلك النصر، وأرسلهم إلى العالم أجمع قائلاً: اكرزوا وعمّدوا، ابنوا الكنيسة، أعلنوا ملكوت الله. وأنتم تعلمون، أيها الإخوة والأخوات، كيف خرج هؤلاء الرجال الاثني عشر، وهم رجال بسطاء جداً، وصيادون بسطاء، وكرزوا. لقد كرههم العالم، واضطهدتهم الإمبراطورية الرومانية، وغرّقتهم بالدماء. لكن تلك الدماء كانت نصراً آخر. نَمَت الكنيسة، وغطت الكنيسة الكون بالإيمان الحقيقي. بعد ٣٠٠ عام من الصراع غير المتكافئ بين الإمبراطورية الرومانية القوية والكنيسة المسيحية العاجزة، قبلت

الإمبراطورية الرومانية المسيح رباً ومعلماً. كان هذا هو الانتصار الثاني للأرثوذكسية. لقد اعترفت الإمبراطورية الرومانية بالذي صلبته والذين اضطهدتهم كحاملين للحق، وبأن تعليمهم هو تعليم الحياة الأبدية. انتصرت الكنيسة. ولكن بعد ذلك بدأت الفترة الثانية من الاضطرابات.

شهدت القرون التالية محاولات عديدة لتشويه الإيمان وتكييفه مع احتياجات الإنسان وإشباعه بالمحتوى الإنساني. في كل جيل كان هناك من لا يستطيع أن يقبل رسالة الصليب والقيامة والحياة الأبدية. لقد حاولوا تغييره، وهذه التغييرات نسميها بُدَعاً. مرة أخرى كان هناك اضطهاد. ومرة أخرى، دافع الأساقفة والرهبان والعلمانيون الأرثوذكسيون عن إيمانهم وأُدينوا ونفوا وغرقوا بالدم. وبعد خمسة قرون من تلك الصراعات والاضطهادات والمناقشات، جاء اليوم الذي نحتفل بذكراه اليوم، يوم الانتصار النهائي للأرثوذكسية كإيمان حقيقي على كل البدع. حدث ذلك في الأحد الأول من الصوم الكبير سنة ٨٤٣ في القسطنطينية. بعد ما يقرب من مئة عام من الاضطهاد الموجّه ضد إكرام الأيقونات المقدسة، أعلنت الكنيسة أخيراً أن الحقيقة قد تمّ تحديدها، وأن الحقيقة أصبحت بالكامل في حوزة الكنيسة. ومنذ ذلك الحين، يجتمع جميع الأرثوذكسيين، أينما كانوا، في هذا الأحد ليعلنوا أمام العالم إيمانهم بهذه الحقيقة، وإيمانهم بأن كنيستهم رسولية حقاً، أرثوذكسية حقاً، جامعة حقاً. وهذا هو حدث الماضي الذي نحتفل به اليوم.

لكن لنسألْ أنفسنا سؤالاً واحداً: هل كل انتصارات الأرثوذكسية، كل النجاحات، تنتمي إلى الماضي؟ عندما ننظر إلى الحاضر اليوم، نشعر أحياناً أن عزاءنا الوحيد هو تذكّر الماضي. في ما سبق كانت الأرثوذكسية مجيدة، وكانت الكنيسة الأرثوذكسية قوية، وقد سادَت. ولكن ماذا عن الحاضر؟ يا أحبائي الأعزاء، إذا كان انتصار الأرثوذكسية ينتمي إلى الماضي فقط، وإذا لم يكن هناك ما نفعله سوى إحياء ذكرى نكرر فيها لأنفسنا كم كان الماضي مجيداً، تكون الأرثوذكسية قد ماتت. لكننا هنا الليلة لنشهد على حقيقة أن الأرثوذكسية لم تمت فحسب، بل إنها تحتفل من جديد وإلى الأبد بانتصارها، انتصار الأرثوذكسية. قد لا يكون علينا أن نحارب البدع بيننا، ولكن هناك أشياء أخرى تتحدى إيماننا الأرثوذكسي من جديد.

اليوم، إذ نجتمع هنا، أرثوذكسيون من مختلف الخلفيات القومية، نعلن ونمجّد أولاً وحدتنا في الأرثوذكسية. هذا هو انتصار الأرثوذكسية في الوقت الحاضر. هذا حدث رائع: أن نتمكن جميعاً، مع كل اختلافاتنا، ومع كل محدودياتنا، ومع كل ضعفنا، من أن نجتمع معاً ونقول إننا ننتمي إلى هذا الإيمان الأرثوذكسي، وإننا واحد في المسيح والأرثوذكسية. نحن نعيش بعيداً جداً عن المراكز التقليدية للأرثوذكسية. نحن نسمي أنفسنا أرثوذكسيين شرقيين، ومع ذلك فنحن هنا في الغرب، بعيداً جداً عن تلك المدن المجيدة التي كانت مراكز للعقيدة الأرثوذكسية لعدة قرون - القسطنطينية، والإسكندرية، وأنطاكية، وأورشليم، وموسكو. كم تبعد تلك المدن. ومع ذلك، ألا نشعر بأن شيئاً من المعجزة قد حدث، وأن الله أرسلنا هنا، بعيداً في الغرب، لهدف أبعد من الاستقرار هنا، أو زيادة دخلنا، أو بناء مجتمع؟ لقد

أرسلنا أيضاً كرسل للأرثوذكسية، لكي يصبح هذا الإيمان، الذي كان تاريخياً مقتصراً على الشرق، إيماناً شاملاً حقاً وكاملاً.

إنها لحظة مثيرة في تاريخ الأرثوذكسية. لهذا السبب من فائق الأهمية بالنسبة لنا أن نكون هنا الليلة وأن نفهم وندرك ونمتلك تلك الرؤية لما يجري. كان الناس يعبرون المحيط، ويأتون إلى هنا، ولا يفكرون كثيراً في إيمانهم بقدر ما يفكرون في أنفسهم، وحياتهم، ومستقبلهم. كانوا عادةً فقراء، وكانت حياتهم صعبة، وقاموا ببناء تلك الكنائس الأرثوذكسية الصغيرة في كل مكان في أمريكا ليس من أجل الآخرين ولكن لأنفسهم، فقط ليتذكروا ديارهم ويديموا تقاليدهم. لم يفكروا في المستقبل. ومع ذلك، هذا ما حدث: أُرسلت الكنيسة الأرثوذكسية إلى هنا من خلال هؤلاء الرجال الفقراء ومعهم الحقيقةَ نفسها، ملءَ الإيمان الرسولي: كل هذا جاء هنا، وها نحن الآن، نملأ هذه القاعة ونعلن هذا الإيمان الرسولي، الإيمان الذي شدّد الكون. وهذا يقودنا إلى الحدث الذي لا يزال ينتمي إلى المستقبل.

إذا كنّا نستطيع اليوم أن نعلن وأن نصلي من أجل انتصار الأرثوذكسية القادم في هذه البلاد وفي العالم، فإن إيماننا الأرثوذكسي يجبرنا على الاعتقاد بأن الإيمان الأرثوذكسي اليوم قد وصل لا بالصدفة، بل بالعناية الإلهية إلى كل البلدان، كل المدن، كل قارات الكون. وبعد ذلك الضعف التاريخي لديننا، وبعد الاضطهاد على يد الإمبراطورية الرومانية، وعلى يد الأتراك، وعلى يد الملحدين، وبعد كل المشاكل التي كان علينا أن نعبر بها، يبدأ اليوم يوم جديد. شيء جديد سيحدث. وهذا هو مستقبل الأرثوذكسية الذي يجب أن نفرح به اليوم.

يمكننا بالفعل أن نقتني رؤية هذا المستقبل عندما تظهر إلى الوجود كنيسة أرثوذكسية أمريكية قوية في الغرب. يمكننا أن نرى كيف أن هذا الإيمان، الذي كان لفترة طويلة إيماناً غريباً هنا، سوف يصبح عالمياً حقاً وكاملاً، بمعنى أننا سنجيب على أسئلة جميع البشر، على كل أسئلتهم. لأنه إن كنا نؤمن بهذه الكلمة: "الأرثوذكسية"، "الإيمان الحقيقي". إذا حاولنا للحظة واحدة أن نفهم ما يعنيه ذلك: المسيحية الحقيقية الكاملة، كما أعلنها المسيح وتلاميذه؛ إذا كانت كنيستنا قد حفظت على مرّ العصور رسالةَ الرسل والآباء والقديسين في أنقى صورها، فهنا يا أصدقائي الأعزاء، هنا الجواب على الأسئلة والمشاكل والآلام في عالمنا. أنتم تعلمون أن عالمنا اليوم معقد للغاية. إنه يتغير طوال الوقت. وكلما تغير الأمر، زاد خوف الناس، وكلما زاد خوفهم من المستقبل، كلما زاد انشغالهم بما سيحدث لهم. وهنا يجب على الأرثوذكسية أن تجيب على مشكلتهم؛ هذا هو المكان الذي يجب على الأرثوذكسية أن تقبل فيه تحدي الحضارة الحديثة وتكشف للناس من جميع الأمم، لجميع الناس في العالم أجمع، أنها ظلت قوة الله المتبقية في التاريخ من أجل التحول، والتألّه، وتجلّي الحياة البشرية.

الماضي، الحاضر، المستقبل: في البداية، رجل وحيد على الصليب؛ إنها الهزيمة الكاملة. ولو أننا كنا هناك في ذلك الوقت بكل حساباتنا البشرية، لربما قلنا: "هذه هي النهاية. ولن يحدث شيء آخر". تخلّى عنه الاثنا عشر. لم يكن هناك أحد، ما من أحد يرجو. كان العالم في الظلام. بدا أن كل شيء قد انتهى. وأنتم

تعرفون ما حدث بعد ثلاثة أيام. وبعد ثلاثة أيام ظهر. لقد ظهر لتلاميذه، واشتعلت قلوبهم في داخلهم لأنهم عرفوا أنه الرب القائم. ومنذ ذلك الحين، في كل جيل، كان هناك أناس قلوبهم ملتهبة، أناس شعروا أن انتصار المسيح هذا يجب أن يُحمل مراراً وتكراراً إلى هذا العالم، ويُعلَن عنه من أجل كسب نفوس بشرية جديدة وليكون قوة محوِّلة في التاريخ.

اليوم تقع هذه المسؤولية على عاتقنا. نشعر بأننا ضعفاء. نشعر أننا محدودون ونحن منقسمون، وما زلنا موزّعين في مجموعات كثيرة، وأمامنا الكثير من العقبات التي علينا التغلب عليها. لكن اليوم، في يوم أحد الأرثوذكسية، نغمض أعيننا للحظة ونبتهج بتلك الوحدة الموجودة هنا بالفعل: كهنة الكنائس القومية المختلفة يصلون معاً، والناس من جميع الخلفيات يتّحدون في الصلاة لانتصار الأرثوذكسية. نحن بالفعل في انتصار، وليساعدنا الله في الحفاظ على هذا الانتصار في قلوبنا، حتى لا نفقد الرجاء أبداً في هذا الحدث المستقبلي في تاريخ الأرثوذكسية عندما تصبح الأرثوذكسية النصر الذي يتغلب إلى الأبد على كل العقبات، لأن ذلك النصر هو انتصار المسيح نفسه.

عندما نقترب من أهم لحظة في القداس، يقول الكاهن: "لنحب بعضنا بعضاً، لكي بفكر واحد نعترف مقرّين" ما هو شرط انتصار الأرثوذكسية الحقيقي؟ ما هو الطريق الذي يؤدي إلى النصر الحقيقي والنهائي لإيماننا؟ الجواب يأتي من الإنجيل. الجواب يأتي من المسيح نفسه ومن كل تقليد الأرثوذكسية. انه المحبة. فلنحب بعضنا بعضاً، حتى نعترف بفكر واحد... نعترف بإيماننا وأرثوذكسيتنا. دعونا، من الآن فصاعداً، نشعر بالمسؤولية تجاه بعضنا البعض. دعونا نفهم أنه حتى لو كنا منقسمين إلى رعايا صغيرة، في أبرشيات صغيرة، فإننا ننتمي أولاً لبعضنا البعض. نحن ننتمي معاً، للمسيح، لجسده، للكنيسة. دعونا نشعر بالمسؤولية تجاه بعضنا البعض، ودعونا نحب بعضنا البعض. دعونا نضع فوق كل شيء مصالح الأرثوذكسية في هذا البلد. لنفهم أن على كل واحد منا اليوم أن يكون رسولَ الأرثوذكسية في بلد لم يصبح أرثوذكسياً بعد، في مجتمع يسألنا: "بماذا تؤمنون؟" "ما هو إيمانكم؟" ودعونا، قبل كل شيء، نحتفظ بالذكرى، ونحافظ على الخبرة، ونحافظ على طعم تلك الوحدة التي نترقبها هذه الليلة.

في نهاية القرن الأول، وقد كانت الكنيسة لا تزال مجموعة صغيرة جداً، أقلية صغيرة جداً، في مجتمع كان بالتأكيد معادياً للمسيحية، إذ بدأ الاضطهاد، كتب القديس يوحنا الإلهي، تلميذ المسيح الحبيب، هذه الكلمات: "هذِهِ هِيَ الْغَلَبَةُ الَّتِي تَغْلِبُ الْعَالَمَ: إِيمَانُنَا"[1]. لم يكن هناك انتصار في ذلك الوقت، ومع ذلك فقد عرف أنه في إيمانه حصل على النصر الذي يمكن أن ينطبق علينا اليوم. عندنا وعد المسيح بأن أبواب الجحيم لن تقوى على الكنيسة. عندنا وعد المسيح أنه إذا كان لدينا الإيمان، فإن كل شيء مستطاع. عندنا وعد الروح القدس بأنه سوف يملأ كل الضعفاء، وأنه سيساعدنا في اللحظة التي نحتاج فيها إلى المساعدة. بمعنى آخر، لدينا كل الإمكانيات، لدينا كل ما نحتاجه، وبالتالي فإن النصر لنا. إنه ليس نصراً إنسانياً يمكن تعريفه بالمال، أو النجاح البشري، أو الإنجازات البشرية. ما نبشر به الليلة، ما نعلنه الليلة،

[1] ١يوحنا ٥:٤.

ما نصلي من أجله الليلة، هو انتصار المسيح فيّ أنا، فينا، فيكم جميعاً في الكنيسة الأرثوذكسية في أمريكا. وأن انتصار المسيح فينا، ذاك الذي صلب من أجلنا وقام من بين الأموات، وذلك النصر هو انتصار كنيسته.

اليوم هو انتصار الأرثوذكسية، وترنيمة اليوم تقول بكل جدية وبساطة: "هذا هو الإيمان الرسولي، هذا هو الإيمان الأرثوذكسي، هذا هو إيمان الآباء، هذا هو الإيمان الذي هو أساس العالم. " إخوتي وأخواتي الأعزاء، هذا أيضاً هو إيماننا. لقد تمّ انتقاؤنا. نحن مُختارون. نحن القلة السعيدة التي يمكنها أن تقول عن إيماننا: "رسولي"، "جامع"، "إيمان آبائنا"، "الأرثوذكسية"، "الحق". إذ لنا هذا الكنز العجيب، فلنحافظ عليه، ولنحفظه، ولنستخدمه أيضاً، بحيث يصبح هذا الكنز انتصاراً للمسيح فينا وفي كنيسته. آمين.

* عظة في أحد الأرثوذكسية، السنة غير محددة، نُشِرَت لأول مرة في آذار ١٩٨٥

Source: Protopresbyter Alexander Schmemann. Sunday of Orthodoxy.
https://www.schmemann.org/byhim/orthodoxy1985.html